إذا هو . . . إذا هو قسّيس . . . . . .

* * *

فقلت : يا عجباً ، ما أظرفَ ما داعبك إبليس هذه المرة وكأنه يقول لك : إيه ياصاحب الفضيلة ...

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم فى شغل إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لسانى فقلت لصاحبنا : ماعنعنك أن تبعث اليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يبدءوها فليس بينك وبينها كلمة تعالَ أو تفضّلى

قال : كلا ، يجب أن تنفصل عنى لأراها فى نفسى أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد لأُلِسَها لمساتٍ روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبى ؛ ويجب أن تدعَ جسمها وأدعَ جسمى وهناك نلتقى رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أنا أكتب وبهذه الطبيعة أنا أحب

ماهو الجزء الذى يفتنى منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه

وما هو هذا الكل ؟ هو الذى يفسر نفسه فى قلبى بهذا الحب

وماهو هذا الحب ؟ هو أنا وهى على هذه الحالة من اليأس

نعم أنا يائس ولكن شعور اليؤس هو نوع من الغنى فى الفن لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم . والحبيب الذى لا تناله هو وحده القادرُ قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدرى أين يختبىء منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدرى أين يُسفِر منه جماله فيدعك تراه بلذة أخرى . أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ؛ على نار مشبوبة فى قلبى

قلت : يا صديق المسكين هذه مشكلة عرضتْ بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبى إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا . . .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين ؟

(لنظلها) « لها بقية » عبد القادر المازنى

(رمى القلم) أوشكت المطبعة أن تتم طبع هذا الكتاب فنرجو من كل مشترك غيّر عنوانه أن يكتب إلينا بعنوانه الجديد

(الرائض)

المشـــيرة عايدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قلما يستطيع الانسان أن يضع نفسه موضع إنسان آخر فى أمر يعنيه ، ولو كان هذا يسمه فى كل حال لكان الأرجح أن يضحكه الذى يمضه ويثقل عليه أو يبكيه . — فى هذا كنت أفكر وأنا أسمع قصة صديقى وكان قد دخل على وهو ينفخ ويمسح العرق المتصبب — عرق الخجل لا التعب والنصب ، فانه صاحب سيارة فخمة ضخمة لا تتعب الراكب ولا تكلفه جهداً غير النظر إلى الطريق وسكون الأعصاب واتزانها وهو يمرق بها بين المارة الذين لا يخلو لهم السير إلا وسط الشارع كأنما كان الشارع متنزهاً عاما وكأنما ينبغى على سائق السيارة أن يسير بها فوق الرصيف ليفسح لهم

وكان يحاول أن يقص على القصة وهو يمسح وجهه بالمنديل فكان نصف ما يقول يخرج مخنوقا فى مطاوى المنديل فقلت له : « هلا انتظرت حتى ينشف هذا العرق »

فغضب وقال : بلهجة المعاتب « وأنت أيضاً . . ؟ ؟ »

فقلت : له وأنا أحاول أن أفىء به إلى الرضى « إنما أردت أن أقول إن المنديل يغيب فيه بعض الكلام فيجىء ما أسمع غير مفهوم . . على كل حال يحسن أن تبدأ من البداية »

قال : « البداية ؟ . يا خبر ! »

قلت : « عمن تتحدث ؟ . . يخيل إلى أنك ذكرت اسماً . . . »

قال : نعم . . عايدة . . »

قلت : « آه . . عايدة ؟ ؟ ومن عسى أن تكون هذه المجرمة ؟ ؟ »

قال : ألا تعرفها ؟ . هذا مدهش . . كيف يمكن . ؟ »

قلت : « يا أخى لا تغضب . . إنك تعرف أن ذاكرتى خوانة . . وليس من النادر أن أنسى أسماء من أعرف من الناس . . فاذا سمحت بأن تذكرنى بها فأنى أعدك أن . . »

فقال : « أوه . . إنك تمزح ولاشك . . لا يمكن أن تجهلها »

قلت : أشكر لك هذه الثقة بسعة معارفي . . ولكني أؤكد لك أن الأسم لا يحرك فى نفسى أى ذكرى . . . لا يثير أى اختلاج . . وليس هذا لأنها لا تستحق الذكر بل لأن الأسماء تقع من رأسى فى غربال واسع الخروق »

فاقتنع وشرع يصفها لى فهززت له رأسى وقلت : « خير من هـذا الوصف الذى لا يصف شيئاً أن تقول لى : أين تسكن أو أن تذكر لى بقية اسمها ... شىء من هذا القبيل ... أما أن تظن أنه يكفى أن تقول : « بنت جميلة هيفاء ممشوقة القوام .. فاسمح لى أن أؤكد لك أنك .. »

فرمانى بنظرة وأومأ إلى أن أقصر ، فأمسكت إشفاقا عليه . وبلع ريقه ثم أخذ يصف لى بيتها فضقت ذرعا بهذا الحال وقلت له : « يا أخى ما حاجتى إلى كل هذا ؟! وكيف تظن أن فى وسعى أن أعرف إنسانا من قولك إن لبيته شرفتين وأربع نوافذ أو عشرا وأن فيه خمس غرف أو ستا .؟ إنما أسالك عن الموقع ... عن الشارع أو الحارة أو الدرب ... ماذا جرى لعقلك اليوم »

وبعد لأى ما استطعت أن أعرف الشارع الذى فيه بيتها فتذكرت

وكانت عايدة هذه — كما قال — جميلة ، ولكن فى قولى « جميلة » اقتصاداً — أو إن شئت فقل إيجازاً مخلا — وما أكثر الجميلات ولكن ما أقلهن أيضاً . والجميلات التى تقع العين عليهن أكثر من أن يأخذهن إحصاء ، ولكن اللواتى يقمن من نفس المرء وتثبت على صفحة القلب صورهن — هؤلاء هن القليلات وعايدة هذه إحداهن . وإنه لسر ولغز لا يحل أنها بقيت إلى الآن بلا زواج ، فما تنقصها لا الرشاقة ولا الظرف ، ولا أنس الحديث وعذوبته ، ولا دماثة الطباع وحلاوتها ، ولا وفاء الثقافة ولا حسن التدبير وكياسة التصرف . وكانت — ولعلها لا تزال — تلازم شرفتها ولا تكاد تغادر بيتها إلا لضرورة ملحة أو حاجة ماجئة ، ولا تخرج حين تخرج إلا ومعها أبوها أو أمها أو واحد غير هؤلاء من أهلها . ولعل هذا هو الذى زهد فيها ونفر منها فما أدرى . على أنى أعرف أن هذا الحبس قد أغراها بضروب من العبث ، فهى لا تزال فى شرفتها فى حفل من الزينة أو فى قميص نوم هفهاف يتركها عارية النحر إلى الثديين ، مكشوفة الذراعين إلى ما فوق الكتف ، أو فى منامة — بيجامة — من الحرير الرقيق محبوكة التفصيل على قدها المشوق وجسمها الرخص ، وإذا كانت لا تخرج وكان فى البيت من يغنيها عن العمل ويعفيها من مشقاته ، وكانت الشقة على اتساعها أضيق من أن تكفى فتاة متعلمة حديثة الآراء فأنها لا تكاد تفارق الشرفة — فيها تقعد لتروح عن نفسها ولتقرأ إذا شاءت ، ولتنظر إلى الرائحين والغادين وتتسلى بالمناظر التى تأخذها عينها ، وقد ألفت ذلك فهى لا تستطيع أن تقطع نفسها عنه ؛ وأحسب أنها لو صرفها أهلها عن الشرفة لجنت ، فما لها عزاء غيرها ولا سلوى سواها ، وإذ كانت ترى كل ما يرى من الشرفة ولا يفوت عينها المفتوحة ما يقع أحياناً بين بعض الرجال والنساء فى حيها المكتظ بالناس وكانت لا تخالط إلا أهلها ، فليس من المستغرب — بل هذا لا غيره هو المتوقع — أن يغلبها صباها أحياناً فيصدر عنها ما قد يعده المتشددون — وما أقلهم فى هذا الزمان — مخالفاً لمقتضيات الحشمة ، وما هو كذلك ؛ ولو قضى على شاب أن يحبس فى بيت ولم يؤذن له فى أكثر من النظر من الشرفة على حين يرى أنداده جميعاً يخرجون متى شاءوا إلى حيث يشاءون لكان من الحمق أن ينتحر ، ولكن عايدة لم تنتحر لأن نشأتها جعلتها تألف هذه الحياة ، وان كانت لا تعزيها عن الحرمان مما ترى أترابها ينعمن به ، وأقله أن تزور أترابها كما يزرنها ، وحدهن ، وفى غير حاشية من الأهل والآباء والأمهات

ولكنى استطردت عن حكاية صديق فلأعد إليه ، قال : «لعلك تذكر أنى كنت جارا لهذه الفتاة — أعنى كنت أسكن بيتاً يقابل بيتها ، وكان لا بد أن أراها وأن أعجب بها فأنها كما يقول الشاعر : « بيرنز » — (يكفى أن تراها لتعشقها) .. »

فقاطعته حامداً وقلت : « عفواً !! لو كان بيرنز قد قال هذا لما كان فى قوله ما يستحق الذكر ، ومن الصعب ترجمة هذا البيت من شعره ، ولكنى أظن أن الذى أراده هو أن معنى أن تراها أن تحبها . . أى أنه لا جبلة لمن يراها إلا أن يحبها . . على كل حال تفضل »

فنفخ وتأفف وقام وتمشى ثم عاد إلى مجلسه فما له صديق غيرى

يستطيع أن يبيحه دخلته

وقال بعد هنيهة : « طيب . . قل ما بدا لك . . المهم أنى أعجبت بها . . شغلت بها زمناً حتى لكدت أهمل عملى وأسىء إلى نفسى . . ويجب أن أعترف لك بالفضل فى رد ما ذهب من عقلى ... »

فهممت بأن أقول شيئاً مثل « العفو » أو ما هو من هذا بسبيل ، ولكنه أشار إلى فرددت الكلمة التى كانت على لسانى ومضى هو فى كلامه فقال : « وتعلم أنى تركت البيت إلى سواه فراراً منها »

قلت : « أعلم ذلك وأظن أنى أشرت به فأن البعيد عن العين بعيد عن القلب »

قال : ولكنى أمس مررت من هناك ووقفت أتحدث إلى البواب زمناً وأنا أرجو أن تلتفت إلى ، فلما لم تفعل شرعت أنفخ فى البوق وعينى على الشرفة ، فرمت إلى نظرة وضيئة وابتسمت ، فكدت أطير من الفرح ، وكان البواب يحادثنى وأنا لا أصغى إليه ولا أدرى ما ذا يقول ولعله كان يرد على كلام لى نسيته ، فما كان لى غاية إلا أن أجعل لوقوفى مسوغاً فى نظر البواب . ولما كان البواب لا يكف عن الكلام وكان ينتظر منى أن أقول شيئاً فقد طلبت منه أن يجيئنى بقليل من الماء أفرغه فى جوف السيارة وما كانت بها حاجة إلى ذلك ، ولكن هذا ما خطر لى أن أصرفه عنى به فمضى عنى فرفعت عينى إليها فألفيتها لا تزال تبتسم فتظاهرت بأنى أصلح البوق ولكن عينى كانت عليها ، فأشارت إلى بيدها أن أمضى إلى آخر الشارع وأن أنتظرها هناك فأسرعت إلى مقعد القيادة ولم أنتظر البواب المسكين الذى أرسلته ليجيئنى بالماء وذهبت فى الطريق الذى أشارت إليه ووقفت أنتظر »

فقلت : « على أحر من الجمر ؟ »

قال : « لا تهكم . . إن المسألة ليست مزاحاً .. نعم كنت على أحر من الجمر . . . فماذا تريد ؟ »

قلت : « لا شىء . . إنما أنتظر أن تذكر بيتاً لشاعر . . ألا يحضرك شىء من محفوظك . ؟ »

قال بلهجة جادة لم أكن أنتظرها : « أنا أقول لك ماذا كان يجول فى خاطرى . . لقد كنت أمنى النفس بوشك اللقاء الذى ظلت أرجوه عاماً كاملاً ولم يصرفنى عنه سواك . . . وكان لك حق . . الآن فقط أدركت أن الشباب يحتاج إلى التجربة التى تغرى بالتؤدة وتقص أجنحة الخيال . . كنت أحلم بأن أراها إلى جانبى فى السيارة وأحدث نفسى بقربها ؛ ولا أكتمك أنى ذهبت أنشىء أحاديث بينى وبينها .. أحاديث كانت تبدأ بالعتاب وتنتهى بالقبلات والعناق . . وكنت أتصورها تدنى ساقها منى — عفواً بالطبع — فأغتنم الفرصة وأدنى أنا أيضاً ساقى من ساقها فتتأى بها فأرد ساقى على مهل كأن الأمر كله جاء عفواً ، ثم تعود إلى هذا التدانى ولا تبعد عنى فى هذه المرة بل تبقى ساقها ملاصقة لساقى فأنعم بهذا القرب الذى لم أكن أطمع فيه بل الذى قطعت الأمل من إمكانه فى هذه الدنيا .. وتذهب إلى مكان خلوى .. وكان خيالى يتشبث بأن يكون المكان خلوياً لا يخلو من أنس ولكنه لا يبلغ من ضجة الناس وزحامهم فيه أن يعكر وجودهم الصفو وينغصه ، فاذا بلغناه وقفنا وطلبنا شيئاً نبل به ريقنا ويدور الحديث بغير انقطاع ، كما لا بد أن ينقطع والسيارة تخطف فى الطريق ، وتلتقى العين بالعين ويحن القلب إلى القلب وتتصل الأيدى وتتداخل الأصابع وتسرى الوقدة منها إلىّ ، ومنى إليها ، فتتلامس الشفاه ويستريح الصدر إلى الصدر ويحف ذراعى بخصرها ويحيط ذراعها بعنق ، ثم تتباعد وتتنهد وقد شفى كل منا بعض ما يجد وأوحى بشىء مما يجن فى تلك القبلة الطويلة التى يفرغ فيها روحه ويفضى بشوقه وصبوته . . . وكنت على استغراق هذا الحلم اللذيذ لشاعرى وحواسى أنظر إلى الطريق ولا يفوتنى أحد ممن يعشون فيه . . . ولم يكن حلمى يمنعنى أن أنظر فى الساعة كل بضع ثوان . . وليس أشق من الانتظار ولكنى استطعت أن أنتظر نصف ساعة . . وما أقلها لو فكرت . . . وما نصف ساعة يقضيه شاب فى انتظار الفوز بلقاء ظل عاماً كاملاً يطمع فيه ثم انتهى به الأمر إلى اليأس منه ؟ ؟ ولكنى على هذا ملت وحدثتنى النفس أن شيئاً لابد أن يكون قد عاقها . ذلك أنى أعلم أنها لا يسهل الخروج عليها وحدها ؛ فقلت لنفسى إنه لا ضرر على كل حال من الرجوع والمرور ببيتها لعلى أرى ما يهديني إلى سبب هذه الغيبة الطويلة على الرغم من إشارتها الملحة أن أسير بسرعة وأنتظرها فى آخر الطريق ... وأوجز فأقول إنى رجعت من حيث جئت وتظاهرت بأن شيئاً فى السيارة يحوجنى

إلى الوقوف وترجلت وفتحت غطاء المحرك ولكني لم أنظر اليه وإنما رفعت عيني إلى الشرفة ، وكانت عائدة واقفة فيها ومستندة كعادتها على حافتها وكأنما لا شيء هنالك ... لا أحد ينتظرها في آخر الشارع منذ نصف ساعة ... كأنها لم ترسلني إلى آخر هذا الشارع ... أدهى من هذا يا صاحبي أنها لم تكد تراني حتى كادت تسقط على الأرض من الضحك .. نعم الضحك .. كانت تضحك لأنها ضحكت على وكلفتني أن أنتظرها وهي لا تنوي أن تجيء ... ماذا يضرها أن أنتظر نصف ساعة ؟؟ ماذا خسرت هي إذا كنت أنا مغفلاً ؟؟ ماذا عليها إذا كنت صدقتها وتوهمت أنها تحن لي مثل الذي أحنه لها وأني لبثت نصف ساعة أحلم وأمني النفس بقربها وحديثها وابتسامها وقبلاتها وضماتها وعناقها ؟؟ لا يضيرها شيء بل يسرها أنها ضحكت على وخدعتني واستغفلتني واستحمقتني وتركتني أرتفع بخيالي إلى حيث شاءت لي السخافة ثم رمت بي إلى الأرض الصلبة . . . هل يعنيها أن عظامي رضت أو أنها تحطمت ؟؟ هل تبالي أن آمالي خابت ؟؟. هل تحفل الصدمة التي لا بد أن أحسها حين أعرف أنها كانت تعابثني وتستغفلني . . ؟ ؟»

فقلت له « خذ » ومددت له يدي بسيجارة فتناولها وهو ذاهل ، وأضرمت له عود الثقاب وأنا أرد الضحك الذي أحس أني سأنفجر به ... ونفخ الدخان مرة وأخرى ، وأحسست أنه صار أهدأ أعصابا ، فقلت « الحقيقة أنه » فصل « بارد ... لا شك في ذلك »

وكان لا بد أن أتألفه بكلام كهذا ليهدأ ثائره ، ثم قلت له وقد آنست منه إقبالا « هي فتاة تعد محرومة من متع الحياة ... كل ما تعرفه من متع الدنيا أن تجلس في الشرفة وتنظر ... أظن أن هذا لا يجوز أن يحسب في المتع ... أولى به أن يزيد شعورها بالحرمان الذي تقاسيه ... بالحجر المضروب عليها ... أهلها ليسوا مخطئين لأنهم لا يعرفون إلا هذا الأسلوب ... وهي ليست مسرفة في احساسها بالحرمان لأنها تعلمت ما لم يتعلمه أبوها وأمها ، وعرفت ما لم يعرفا ... والمجتمع المصري عرف السفور ، ولكنه لا يزال بعيداً عن الحياة الاجتماعية التي تجعل السفور ذا معنى وفائدة ... والبنت المصرية سافرة ولكنها لا تحيا الحياة الاجتماعية التي يستدعيها السفور ... فكأنها تسفر لترى بعينها ما هي محرومة منه ... والنتيجة أن الفتاة صارت كالحجلة في حكايات كليلة ودمنة ... لا هي بقيت محبوسة في البيت ، ولا هي فازت بالمتع البريئة التي يقتضيها السفور ... لست أريد أن ألقي عليك محاضرة ، وإنما أريد أن ألفت نظرك إلى أن هذه الفتاة معذورة إذا هي التمست التسلية والضحك ... وليس من العدل والانصاف أن نأبى عليها أن تضحك ، وأن نحرم عليها أن تتسلى ... وليس من حقك أن تدعي أن لك عليها حقا فما هي بزوجة لك ولا صاحبة ... ولقد عرفت اسمها من أفواه الناس لا من أبيها ولا من أحد من أهلها ... والمغازلة يا صاحبي مقامرة ... والمقامر يجب أن يحتمل الخسارة كما ينتظر من ملاعبيه أن يحتملوا الخسارة حين يربح هو ... وقد قامرت وخسرت ... ومن واجبك أن تتلقى حظك بابتسامة ... ضع نفسك في مكانها . . . فأنك خليق أن تضحك مما حدث كما أضحك أنا الآن »

وانفجرت بالضحك المكتوم فنهض كالمغضب وقال : « أو تضحك ؟ »

قلت : « سبحان الله . . وهل كنت تنتظر مني أن أبكي ؟ ؟ والله إني لأراها قد عاملتك كما تستحق . . . برافو عليها . . وياسخيف . . . ألا تعرف أنها لا تخرج قط فكيف صدقت أنها لاحقة بك . . »

قال : « يا أخي ألم أقل لك إنها أشارت إلي أن أسبقها »

قلت : « أنا أيضاً أشارت إليّ مرات حين كنت أزورك . . وكنت أرى يدها تشير إلى أن أسبق فأتريث حتى أرى ما يؤيد ما فهمته من هذه الاشارة فكان تريثي يريها أني لست بالخفيف الطياش . . ويخيل إلي الآن أن أساليبها لا تعدد فيها ولا ابتكار . . . مسكينة لا تعرف إلا أن تشير إلى الرجل أن يسبقها فاذا فعل ضحكت . . هذا كل ما عندها على ما يظهر »

قال : « أو تعذرها ؟ . . تلتمس الأعذار لها ؟ »

قلت : « المرة الآتية . . حين تستغفلك مرة أخرى . . اضربها علقة . . قم يا أبله . . واجبك الآن أن تقلب الصورة لترى وجهها الآخر . . صورتك أنت وأنت تنتظر وتحلم ولا تعرف ما أعدت لك . . . اقلب الصورة واضحك . . . »

فسرني أن وقف هنيهة كالمفكر ثم انطلق يقهقه

ابراهيم عبد القادر المازني